البينذاتية كمنهج قرائي تفاعلات الذات والآخر في سرد حسين البرغوثي

أحلام محمد، فلسطين

تتناول هذه الإضاءة "البينذاتية" باعتبارها مدخلاً لدراسة العلاقات بين الذات والآخر، وتأثيرها على تشكيل الهوية الذاتية. وتركز الإضاءة على تحليل هذا المفهوم في بعض أعمال حسين البرغوثي السردية، وهو الذي قدم رؤية فريدة لهذه التفاعلات من خلال سيرته الذاتية الفعلية وأعماله الأدبية التي نتناولها هنا، وهي: **الضفة الثالثة لنهر الأردن** (1983)، و**الفراغ الذي رأى التفاصيل** (1996)، و**الضوء الأزرق** (2001)، و**سأكون بين اللوز** (2004). تعامل البرغوثي مع البينذاتية بوصفها حواراً داخلياً، يمتد للخارج، بين الذات وما يحيط بها. وقد أثر المكان (الجبل، والنهر، والبحر) بشكل عميق على تكوين هويته الشخصية، حيث ظهر ذلك في ثنائية الثبات والتحول بين الجبل (الثبات) والبحر (التحول). كما تتناول الإضاءة أثر الغربة والاحتلال "الإسرائيلي" على شخصية البرغوثي ونفسيته، وما اكتنف ذلك من صراعات بين هويته الذاتية المتخيلة وواقعه الاجتماعي والنفسي. وتسعى هذه الإضاءة إلى تقديم قراءة فلسفية ونفسية لمفهوم "التحول الذاتي"، والربط بين البينذاتية والتحليل النفسي لفهم معاناة البرغوثي التي ظهرت في كتاباته كصراع بين الذات القديمة والرغبة في تكوين ذات جديدة أكثر انسجاماً مع تطلعاته—الأمر الذي يتيح قراءة الأدب كأداة لاستكشاف الذات ومواجهة الاغتراب بالإضافة إلى كونه مرآة تعكس قضايا الهوية والانتماء.

المقدمة

يصف مفهوم "البينذاتية" العلاقات بين الذوات التي تتوزع على ثلاثة محاور: علاقة الذات بالذات، وعلاقة الذات بالشيء، وعلاقة الذات بذاتها. ونتيجة للتفاعل القائم بين هذه المحاور، ينتج لدى الفرد في المجتمع وعي بالذات، ووعي بموضوعات مقابلة للذات. وهذه "الذاتية" هي ما تحاول هذه الإضاءة بوصفها مدخلاً لمعرفة هذه الـ"بين" التي تفصل الذات عن العالم، كما أوضحت بشكل خاص كتابات موريس مارلو بونتي لناحية توسُّط جسد الإنسان بين الفكرة عن العالم الخارجي، التي في الذهن، والعالم الخارجي الذي هو خارج الجسد والذهن—أي بين الإحساس بالعالم الخارجي وكيفية تشكُّله كعالم أليف في ذواتنا أو غريب عنها.

عاش حسين جميل البرغوثي (1954-2002)، الذي تتخذ الإضاءة أهم أعماله السردية مثالاً، في أكثر من منطقة: فلسطين مسقط رأسه، ولبنان عندما انتقل وعائلته لفترة محدودة حيث عمل والده، والمجر وأمريكا للدراسة

الأكاديمية، بالإضافة إلى إقامة متقطعة في الأردن للعلاج والترحال خلال الفترة الأخيرة من حياته. واعتماداً على كتابات البرغوثي، يمكن تقسيم هذه المناطق إلى موتيفات جغرافية، هي: الجبل، والنهر، والبحر، أثَّرت على تكوين شخصية البرغوثي وصقلها سواء كان ذلك من خلال طبيعة المكان نفسها، أو من خلال الأشخاص الذين التقاهم، أو من خلال ذاته وكيف كان يتصورها على مدار تلك المراحل وفي مختلف تلك الأماكن.[1]

تتأثر عملية استكشاف الذات والآخر بعدة عوامل، أهمها نفسية الشخص، والعلاقة المتبادلة بين تلك العوامل ونظرة الفرد إلى نفسه. وجراء نفسية البرغوثي الترحالية، فقد انعكس ذلك على رؤيته للأشخاص والأشياء والأمكنة ولذاته. وقد كان للاحتلال "الإسرائيلي" لفلسطين أثر كبير على تجزئة الجغرافيات الفلسطينية، وبشكل خاص القدس ورام الله كونها مسقط رأس حسين البرغوثي ومجال حركته الأساسي، وكونها لعبت دوراً محورياً في حياته الاجتماعية والنفسية والفكرية. لقد كان لتجزئة المناطق الفلسطينية أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية، وأسفرت عن تشرذم فئات متنوعة من الفلسطينيين. وكون البرغوثي عاش في قرية كوبر الجبلية شمال مدينة رام الله، وكون الاحتلال أغلق مسالك البحر في وجه الفلسطيني، فإن البرغوثي لم يرَ بحراً إلا عندما انتقل إلى بيروت، وبذلك بقي البحر بالنسبة له شيئاً من عالم المجهول.

البينذاتية: المفهوم والنشأة

يقابل مصطلح "البينذاتية" في اللغة الإنجليزية مصطلح "Intersubjectivity" في غالبية المصادر، ولكنه أحياناً يكتب "Intrasubjectivity". أما المفردة الأولى، فمؤلفة من مقطعين: "Inter" وتحمل معنى "ما-بين"، و"Subjectivity" وتحمل معنى "الذاتية". وأما الثانية، فمقطعها الأول هو "Intra" ويحمل معنى "فيما-بين"، و"Subjectivity" بمعنى "الذاتية". وفي الإجراء المنهجي لهذه الإضاءة فإن كلا المصطلحين يدلَّان على علاقة ما أو نوع من التواصل بين الذات و شخص أو شيء آخر غيرها، أو علاقة الذات بذاتها. ولا شك أن هذه العلاقة تتضمن نوعاً من أنواع التواصل، فتدل باستخدام المصطلح الأول على معنى "ما-بين" في سياق علاقاتنا وكياناتنا الاجتماعية، أما في المصطلح الثاني، "فيما-بين"، فتدل على علاقة الذات بذاتها—أي على تجربتها الفردية.

يُستخدم المفهوم، وإن اختلفت البادئتين، في تخصصات مختلفة ضمن حقلي الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، سواء Intrasubjectivity (بمعنى "فيما- بين"/ with-in) أو Intersubjectivity (بمعنى "ما-بين"/ in-between). وهناك من يستخدم المصطلح الأول ويترجمه ترجمة الثاني، والعكس صحيح. ولعل في هذا الخلط اللغوي، الذي يبدو غير ذي أهمية، ما يبرر الاستعانة بالتفسير الفلسفي لـ"أنا" بوصفها مجموعة من العلاقات الاجتماعية تبعاً للنهج الماركسي الذي اختاره البرغوثي كمدخل لدراسة تحولات "الأنا" في عملية الإنتاج الإبداعي في كتابه **الصوت الآخر- مقدمة إلى ظواهرية التحول**.

في هذا السياق أيضاً، تورد دونا أورانج[2] تمييزاً مهماً بين الاسم بينذاتي/ "Intersubjective" والمصدر بينذاتية/"Intersubjectivity" بشكل يقترب من التفريق الذي أحاول تثبيته بين "ما بين الذاتية" و"فيما بين

ذاتية". وتشير أورانج إلى أن تعبير "بينذاتي" يمكن أن يحيل إلى التجربة السياقية لذات واحدة (شخص واحد)، فيما تحيل "البينذاتية" إلى مجموعة من العلاقات، السياقية أيضاً، لذاتين مختلفتين (شخصين، أو شخص وموضوعات أخرى، أو الشخص وذاته).

البينذاتية بوصفها أداة في التحليل النفسي

بالرغم من أن مصطلح البينذاتية يعتبر مصطلحاً حديثاً، إلا أنه يمكننا تتبعه منذ كتابات رينيه ديكارت التي مهَّدت لولادة الفلسفة الغربية الحديثة، والتي من خلالها صاغ عبارته الشهيرة "أنا أفكِّر، إذن أنا موجود."[3] فمن الناحية النفسية، تدل البينذاتية على نوع من الحوار الداخلي الذي تقوم به الذات أثناء معالجتها لأمر ما أو التفكير فيه. وتتوزع هذه العملية بين الذات والموضوع، إذ تقوم الأنا بإجراء هذا المونولوج مع نفسها التي شكَّلتها حيث تصبح مرآة لها. وقد كان سيغموند فرويد هو أول من طرح تصوراً مفاده أن الذات أو الهوية الفردية تُبنى وفق رغبة الذات ودوافعها النفسية في سيرورة لا/واعية. ولعل هذا ما يتنافى، شكلياً، مع "الكوجيتو الديكارتي" (أنا أفكر، إذن أنا موجود) الذي يدل على اتساق الذات وإدراكها لذاتها.[4]

الأنا، في هذا المقام، قادرة على تنفيذ عمليات عدم/تحديد الهوية، مثل: "الإسقاطات، والمقدمات، والاستثناءات، والرفض، والقمع، ووضع علامات على الحدود، واستبدال الهوية الجديدة، وعدم تحديد الهوية القديمة وأنشطة أخرى لتشكيل الذات [...] هذه التحركات أو التصرفات هي طليعة الوعي أي ما قبل الوعي، وبالتالي فهي حركات سابقة للوعي أي 'عمياء' من منظور الذاتية الواعية."[5] وعليه، فإن الأنا بعد أن تقوم بعمليات تحديد أو عدم تحديد الهوية هذه، والتي تكون نابعة من المقارنة، أو المساواة، أو التماهي وغيرها... من الممكن أن تتأثر بعدة نتائج تتعلق بطبيعة العلاقة الناشئة، مثل: فهم الذات وإدراكها بشكل أوسع، وإنتاج أو تعديل أو تغيير الأفكار ووجهات النظر، وخلق صراع داخلي، إذ من الممكن أن "تنشأ مشاكل للأنا المبدعة عندما تظهر الذات الناشئة في حالة من النفي المتبادل، وهي في حالة كان الصراع صراعاً داخلياً أو ذاتياً بينياً يضرُّ بوحدة الذات [...] والتفاعل بين هذه التجزئة أو هذه الثنائية الذي يؤدي إلى تحول في التعريف الأساسي للهوية الأصلية وذلك من خلال هيمنة شخصية على الأخرى ونفيها."[6] هذا إذا تمَّت مقارنة الذات بذات أخرى، أو إن كانت الأنا ترغب بأن تصير ذاتاً مختلفة. هنا، تسعى الأنا لأن تصير هذه الذات المقابلة وتنفي ذاتها القائمة، ويؤدي هذا الصراع الداخلي إلى تفكك الذات برغبة منها لأن تصبح ذاتاً جديدة.

لقد أخذ جاك لاكان بتصورات فرويد، وأضاف إليها مبرهناً على أن وعي الذات بذاتها أمر معقد وصعب. فعندما يصل الشخص إلى مرحلة الوعي/ مرحلة المرآة،[7] "يبدأ معها وعيه بالذات كوعي بتكامل غير موجود [...] ولذلك، فإن الهوية لا تتجسد كشيء متكامل فينا، وإنما هي حالة من التماهي مع صيرورة متحولة دوماً."[8] هنا، تبدأ الأنا بخلق هوية ذاتية متخيَّلة بعد أن تدرك فقدانها للتكامل، كما وتتخيل نفسها بصور أخرى لها، أو كيف ترغب أن تتصورها وتراها الذوات الأخرى.

في كتابها **تطبيق البينذاتية السياقية في ممارسة التحليل النفسي**،[9] توضح أورنج، والمؤلفان المشاركان جورج أتوود وروبرت ستولورو، أن تطور البينذاتية في التحليل النفسي يكون وفق أربع مراحل كُرِّس لكل منها كتاب يعبِّر عن اتجاه منهجي يراوح بين "التحليل النفسي" و"البينذاتية" كمنهجين متداخلين، وفي أحيان كثيرة متطابقين. ويمكن إيجاز هذه المراحل كالتالي: الاتجاه الأول يظهر في كتاب **وجوه في غيمة**،[10]إذ تم تبيان أن البينذاتية تتمظهر عبر دراسات نفسية-سيرية يتم فيها التركيز على العوالم الذاتية والموضوعية لمؤلفيها، وفي المحصلة يحتاج التحليل النفسي في هذه الحالة إلى نظرية خاصة في "الذاتية" ليكون مجدياً. والاتجاه الثاني يتبلور في كتاب **بنى الذاتية**،[11] حيث تم تقديم مفهوم "الحقل البينذاتي" بوصفه نظاماً يتشكل عبر تفاعل عوالم ذاتية متباينة، ويصير مكوناً نظرياً أساسياً في التحليل. والاتجاه الثالث يتبدى في كتاب **العلاج التحليل-نفسي**،[12] فيتم تطبيق مبدأ الـ بين-ذاتية على طيف من الموضوعات العيادية، مثل: تحليل الإحالة، والمقاومة، والفعل العلاجي، وعلاج الحالات النفسية البينية. والاتجاه الرابع يتجسد في كتاب **سياقات الوجود**،[13]عبر "مراجعة" المبادئ التأسيسية الأربعة لنظرية التحليل النفسي، وهي: اللاوعي، والعلاقات بين-الجسدية، والصدمة، والفانتازيا، ومن ثم تتم إعادة موضعة هذه المبادئ في إطار البينذاتية. وعلى ذلك، فقد جاء كتاب **تطبيق البينذاتية السياقية في ممارسة التحليل النفسي**، كمحصلة تراكمية لهذه الكتب الأربعة، وهو مكرَّس بالكامل لبحث "السياقية" كمبدأ فلسفي حيوي في المنهج البينذاتي-التحليلي.

وخلال التمهيد النظري لمبدأ "السياقية"، توضح أورانج ورفيقاها أن "نظرية البينذاتية تسعى إلى وصف ظهور الذاتية وتطورها، وتعرَّف تلك العمليات على أنها علائقية ولا يمكن اختزالها."[14] كما تؤكد أورانج أن البينذاتية، كأداة تحليل نفسي، لا تنظر إلى الإنسان كمستودع معزول للرغبات الجنسية المكبوتة، كما في التحليل الفرويدي الخطيِّ، بل تعتبر البينذاتية محاولة حوارية لاكتشاف شبكة العلاقات المركبة داخل "الذات" وبين "الذات" وسواها، بوصفها صانعة لتجربتها الخاصة، ومشاركة في صناعة تجارب غيرها في عملية سياقية طويلة المدى.

وعلى الرغم من أن معظم الدراسات تعزو بداية استخدام مصطلح "البينذاتية" إلى يورغن هابرماس[15] في مسعاه لتوصيف العلاقة بين الرضيع وأمه بطريقة تتجاوز الطريقة التقليدية لوصف علاقة-الذات-بالموضوع، إلا أن أبحاث التحليل النفسي تجاوزت هابرماس نفسه في هذا المجال. وهنا، تشير لوريل بولينغر، على وجه التحديد، إلى الفهم الجديد للبينذاتية الذي ساهمت به جيسكا بنيامين في كتابها **روابط الحب** الذي أعطى دفعة كبيرة بفضل ازدهار أبحاث الطفولة والأبحاث النسوية في عقدي الثمانينيات والتسعينيات.[16] وتوجز بولينغر نظرة بنيامين للبينذاتية، كمنهج، بوصفها آلية للتعرف على شبكة العمليات التي تعرف "تأكيد الذات" لنفسها وسعيها لنيل "اعتراف الآخرين" في عملية جدلية سياقية طويلة الأمد.[17] ولا تقتصر نظرة بنيامين على توصيف تلك الشبكة من العلاقات بين "الذوات"، بل وتشتمل أيضاً على وصف "المتعة" في بنائها.

لعل مسألة المتعة تعيد "البينذاتية" إلى جذورها الفلسفية والنفسية الأكثر عمقاً وقدماً، وتحديداً إلى كتابات أفلاطون وفرويد. ففي محاورة **المائدة**، يشير أفلاطون إلى أن الأجساد خلقت في منشئها على شكل كروي، ومن ثم

انشقت إلى شقين، وبدأ كل منهما بالبحث عن الآخر.[18] ولعل في هذا المجاز الفلسفي ما يجعلنا نتقدم خطوة إلى التحليلات الأكثر تأثيراً في فهم "البينذاتية" بوصفها "التحليل النفسي" ذاته، أو أداته الأكثر مركزية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مقولات فرويد حول علاقة الطفل/الرضيع بوالدته منذ الولادة، ومروراً بمرحلة المرآة عند جاك لاكان... وهكذا إلى آخر سلسلة التحليل النفسي التي تربط "ذات" الطفل، غير المعرَّفة بعد، بـ"ذات" الأم المعرَّفة، والتي تمنح "الاعتراف" كذلك للطفل في مرحلة معينة من حياته، ويتجاوز ذلك بتفسير فعل الحب الجنسي ذاته، والرغبة في التوحد بين جسدين/ذاتين.[19]

إن أطروحة بولينغر تفيدنا بشكل مباشر في الاستنتاج بأن "الإحساس المحيطي" الذي يصفه فرويد في الطفل، و"رغبة نصف الكرة" في الاتحاد بنصفها الآخر التي يصفها أفلاطون، تعبِّران أصدق تعبير عن سلسلة العمليات النفسية والاجتماعية، أي الوجودية، التي تسعى من خلالها الذات: أولاً لتعريف نفسها، وثانياً لنيل الاعتراف من الآخرين، وثالثاً لتحقيق متعة "التواصل" البينذاتي مع السياق الذي تعيش فيه.

تفاعلات الذات والآخر في أعمال البرغوثي

على المستوى النفسي، تدل البينذاتية على الحوارات الذاتية الداخلية التي يقوم بها الإنسان أثناء معالجته لأمر ما أو التفكير فيه. وفي هذا السياق، يبدأ البرغوثي **الصوت الآخر** بتمهيد حول تعريف الذات والإبداع موضحاً أن وعي الذات ينبع من معنى محدد مباشر ترى الذات من خلاله العالم: فإذا كان المرء مؤمناً، مثلاً، تكون نظرته لذاته وللعالم دينية، أما إذا كان مُلحِداً، فتكون نظرته للعالم مادية، وهكذا. يأخذ البرغوثي التحول والإلهام كمثالين على تحول الذات، فالتحول هو انبثاق لعدة مقولات أساسية تكون الذات واعية لها، بحيث تتحول الذات من صورة إلى أخرى. أما الإلهام فيُنسب لشيء آخر غير الذات، كالرب أو الشيطان.[20] وبذلك، يبدأ البرغوثي بمقدمة ليدخل إلى تقسيمات الذات وعلاقاتها: العلاقة الأولى بين الذات ونفسها، والثانية بين الذات وموضوع مقابل لها كذات أخرى، والثالثة (الأخيرة) بين الذات وموضوع من الطبيعة.

يوضح البرغوثي كيف تتكون هذه العلاقات بين الذات والموضوعات الأخرى في المجتمع، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الذات ترى نفسها وتتعامل معها كموضوع مقابل لها، "إن كان للنوع الإنساني أن يبقى ولا يتلاشى، فإن عليه إعادة إنتاج ذاته عبر 'التعاون' بين الأجناس في هذه الجماعة أو تلك كنشاط اجتماعي واعٍ بذاته [...] وعليه، فإن أيَّ إنسان فرد هو نتاج اجتماعي وحيوي: هو موضوع."[21] ولكي يعيد الفرد إنتاج ذاته، وجب وعي الذات بذاتها، كشيء من أشياء الطبيعة أو أفراد المجتمع التي تتأثر وتؤثر. ولكي تعي الذات نفسها والموضوعات، فإن هذا يكون نتاج تعامل وتفكير، ذلك أن عملية الوعي تكون عملية اجتماعية. وعليه، فإن الذات تعتبر موضوعاً أيضاً.

إن التحويل الذي تُجريه الذات الإنسانية على الطبيعة الخارجية يتم في الخيال، فبناء الأهرامات، مثلاً، تم تخيُّله في الذات كنشاط إنساني، ومن ثم تم نقله إلى الواقع أو الطبيعة الخارجية. يقول البرغوثي: "الخيال هو مقولة تجريدية مقسمة نظرياً إلى ثلاث مقولات فرعية: الأولى خيال الطبيعة الخارجية وغير المُحوَّلة فعلاً، والثانية

خيال الطبيعة المُحوَّلة فعلاً—الحضارة المادية، والثالثة خيال جسد الإنسان، وهو مقولة فرعية من الطبيعة المُحوَّلة فعلاً."[22] هنا، يميز البرغوثي بين مصطلحين: "الذاتية"، وتعني نتاج الوعي الذاتي مثل الأفكار والأحاسيس، و"الموضوعية" وتعني أيَّ شيء سوى الذات.[23] ولذا، فإن كل ذات على مدار التاريخ تتكون من ثلاثة محددات، هي: الذات في علاقتها بنفسها، والذات في علاقتها بشخص آخر، والذات في علاقتها بشيء آخر.

الأولى، هي خيال الفرد، وهو العامل الأساسي في هذه المحددات، فالذات تستطيع أن ترى الطبيعة الخارجية بشكل مجرد، أي تفاصيل الأشياء في المحيط والطبيعة كما هي بالضبط، كرؤية الصخرة صخرةً والشجرة شجرةً... وهكذا. أما الثانية، فهي خيال الطبيعة المُحوَّلة فعلاً، أي تحويل الطبيعة وإضفاء تفاصيل وهوية جديدة لها من قِبل الذات، ويكون ذلك في ذهن الفرد وخياله، كتحويل الصخرة إلى منحوتة، أو الشجرة إلى طاولة، وهكذا... أي إن هذه الهوية الجديدة للأشياء كانت في خيال الذات وتم تحويلها وتطبيقها على أشياء من الطبيعة. وأما الثالثة، فهي خيال الذات لنفسها، أي أن الفرد يتخيل ما يرغب أو ما لا يرغب أن تكون عليه ذاته، ويتم تطبيق ذلك بشكل واعٍ وأحياناً أخرى بشكل لا واعٍ.

يؤمن البرغوثي أن "الصورة الاجتماعية" العليا لأيِّ شيء، كـ"ذات" أو "موضوع"، إنما تبدأ كفكرة، والفكرة تبدأ في ذهن ذاتٍ ما، سواء كانت بشرية أو غير بشرية، واقعية أو خيالية. وبالتالي، تحتل "الذات" المفكرة مكانة خاصة في إنتاجه السردي والنظري. وبهذا المعنى، لا يمكن لأيِّ شيء موجود في الطبيعة الخارجية ألا يكون وفق قوانين الطبيعة، وكذلك الصور الاجتماعية والذاتية. هذا ينطبق، أيضاً، على جسد الإنسان ودماغه، "حتى إن معظم التهيؤات 'اللاعقلانية' و'الخيالية' يتم إنتاجها من قبل الدماغ بما يتوافق مع القوانين الحيوية والكيميائية والطبيعية التي تحكم الإنسان ككائن حي،"[24] إذ يمكن القيام بتشخيص أيِّ شيء أو شخص أو ظاهرة في الطبيعة ووصفها بصفات إنسانية أو شعرية، بحيث يكون هذا الوصف نتاج قوانا الذهنية. من هنا، تأتي أهمية علم النفس في بحث الكيفية التي ترى الأنا من خلالها نفسها ككينونة واعية بذاتها، ومتأثرة بالطبيعة حولها وبما تحمله من مشاهد وأفكار وذكريات ومعتقدات وغيرها.

وعلى ذلك، فإن رؤية الشخص لنفسه تبدأ من مرحلة مبكرة هي مرحلة المرآة عند لاكان، والتي تبدأ فيها مرحلة الوعي والإدراك عند الطفل عندما يرى انعكاسه في المرآة لأول مرة، فيُدرك شكله وذاته خارجياً، ويبدأ بتكوين هوية عن نفسه. تتطور هذه الهوية لاحقاً، وتتغير وفقاً للظروف والتفاعلات الحياتية. يقول البرغوثي: "'أنا' أستطيع تشريح أفكاري وكأنها ضفدع. ولذا، فإن بوسعي أن أرتبط بنفسي كما ترتبط الذات بموضوع. وعي الذات هو عملية الربط هذه بعينها. إنها ليست أكثر من علاقة ذات بموضوع، وقد تم استنباطها وانعكاسها في دماغ الإنسان وذاته،"[25] إذ تقوم الأنا بعمليات تحديد الهوية هذه، وهي عمليات تهدف إلى المقارنة، أو المساواة، أو التماهي، أو غير ذلك... ونتائج ذلك تتعلق بطبيعة العلاقة الناشئة كأن تُدرك الذات نفسها بشكل أعمق، وأكثر إيجابية وإنتاجية، أو على العكس، أن تُحطِّم نفسها وتهمِّشها.

يوضح البرغوثي هذا في **الصوت الآخر**[26] بتعبير آخر مفاده، من ناحية، أن التعريف الإيجابي يتعلق بإدراك الذات لنفسها ضمن محددات ومؤثرات إيجابية. ولكن، من ناحية أخرى، من الممكن أن يؤدي تأثر الذات إلى محاولة تعديل وجهات النظر والأفكار الخاصة بها وتغييرها، أو إلى خلق صراع داخلي يؤدي إلى تجزئة الذات وأحياناً إلى تحويل جذري في الهوية. هذا الصراع ينبع من هيمنة شخصية واحدة على الأخرى ونفيها، وذلك في حال تمت مقارنة الذات بذات أخرى، أو رغبت الذات بأن تصبح ذاتاً مختلفة تشبه الذات المقابلة لها. "الأنا هي حالة حدودية: فإذا تم غزوها من قبل الـ'لست أنا'، فإن تغييراً جذرياً في الهوية قد ينتج عن ذلك، إذ يمكن أن تُقتلع الأنا، أو حتى تنقرض. أما إذا كان آخَرها، الـ'لست أنا'، مؤدباً بما فيه الكفاية حدَّ أن يدخل إلى الذات بإذن منها، أو، لربما، بدعوة منها [...] فإن هذا يُعَدُّ تغييراً مرحَّباً به، على الرغم من أن الماوراء لا زال غريباً."[27] وللوقوف على هذه "الظاهرة"، ينبغي التأمل في شخصية الذات/ البطل في أعمال البرغوثي السردية.

الجبل، والنهر، والبحر في أعمال البرغوثي السردية

وفق ترتيب أعمال البرغوثي الأربعة التي تم التركيز عليها في هذه الإضاءة، وهي عبارة عن أعمال سردية تتراوح بين الرواية والنص والسيرة الذاتية وهي: **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، و**الفراغ الذي رأى التفاصيل**، و**الضوء الأزرق**، و**سأكون بين اللوز**... من الناحية الزمنية، يمكننا تقسيمها إلى قسمين: تاريخي ومفهومي. أما القسم الأول، فهو رحلة الذهاب من الجبل عبر النهر إلى البحر. وأما الثاني، فهو رحلة الإياب من البحر عبر النهر إلى الجبل—أي من وإلى فلسطين مروراً بنهر الأردن، وهو عبارة عن الحدود بين فلسطين وباقي العالم. وللبرغوثي وقفة لافتة حول معاني "الجسر" بوصفه خدعة لتبديل "الشخصيات" حين تقطع النهر، سواء النهر الفعلي-نهر الأردن، أو النهر المجازي-بين موقعية وأخرى في الحياة. فالنهر إذاً يشكل فاصلاً مكانياً وشعورياً بالنسبة لحسين البرغوثي، وربما للفلسطيني بشكل عام.

الضفة الثالثة لنهر الأردن

تدور غالبية أحداث رواية **الضفة الثالثة لنهر الأردن**[28] في هنغاريا، الدولة التي انتقل إليها البرغوثي بعد المرحلة الثانوية بهدف الدراسة الأكاديمية في العام 1973. يظهر البطل ضمن مونولوج متواصل على امتداد الرواية، وهو يعيش حالة نفسية سيئة في أوروبا، ويخوض صراعاته مسترجعاً ذكريات فلسطين ولبنان فيما يشبه سيرة البرغوثي نفسه. وهنا، لا بدَّ من الإشارة إلى أن الخط الحكائي لهذه الرواية يختلط بسيرة البرغوثي نفسه، فبطلها غير المسمَّى، والذي يتم الحديث عنه بضمير المتكلم، يتقاطع مع شخصية البرغوثي.

يتذكر بطل الرواية حبيبته دانا التي خانته وتركته يعيش حالة من الاغتراب والألم، محاولاً أن يتحدث مع نفسه ليفهم هذا الألم، ويتوصل إلى كيفية التعامل معه. كلما شعر بضيق وبعدم استقرار وألم في حالته النفسية، يحاول البطل غير المسمَّى نفي روحه من المكان ونقلها لتكون جزءاً من الطبيعة. "يا ليتني مثل هذه البحيرة: هادئ وعميق وأزرق! حولي تتجول الفِيَلة، وفيَّ تسبح الوعول بقرونها، وفوقي تتصايح النسور البرية. لكنني أبقى مثل هذا

الجسد البشري وطائر البحر، وخلفي جمال الطبيعة، فليلتقِ الجمال بضفَّتَيه! وجودي بينهما صوت نشاز يعكر عزف سيمفونية الكون على ما يبدو."[29]

هنا، لا بدَّ من الإشارة إلى أن البرغوثي كثيراً ما يعبِّر، من خلال شخصية البطل، عن شعوره بوصف ذاته بأوصاف من الطبيعة، وعن رغبته بالابتعاد عن الناس والذهاب وحيداً للطبيعة. فهو كثيراً ما ينفي نفسه وروحه ويبقى وحيداً مع نفسه التي ترغب بالتماهي مع الطبيعة، ولكنها تعكِّر جمال المكان حتى وهي جزء من الطبيعة. إن رغبته في الهدوء والعمق كالبحيرة تدلُّ على روحه الهائمة الراغبة في استقرار روحي. أما اللجوء إلى الطبيعة، فيدل على ابتعاد البرغوثي عن المجتمع، أو على عدم انسجامه معه. وبالتالي، فإن الطبيعة هي ملاذه، توفِّر له حرية الفكر والشعور والتخيُّل، فيرغب أن يكون كالبحيرة "هادئ وعميق وأزرق". لكن البطل، في نهاية الفقرة يرى وجوده في هذه الصورة المُتخيَّلة كصوت نشاز يعكِّر الجو، لأنه مدرك أن روحه متعبة، وغير ثابتة، وعميقة كما البحيرة والعزف.

الذات هنا قادرة على تنفيذ عمليات تحطيم الهوية، كأن ترفض الواقع وتحاول بناء الهوية الذاتية، أو استبدالها أو عدم تحديدها، وهي تفعل ذلك بشكل أعمى، أي بحركات سابقة للوعي. ولا شك أن إحدى نتائج ذلك هي خلق صراع داخلي يؤدي إلى تفكك الذات القديمة المتأثرة بماضينا بغية أن تصبح ذاتاً جديدة. هنا، يبدو وكأن البرغوثي يبحث عن مكان ما يستعيد فيه نفسه ويشكل هويته الذاتية، لكنه كلما انتقل إلى مكان آخر، فقد جزءاً إضافياً من هويته. وعليه، فإن الذات تفكك نفسها ذهنياً إلى ذات وموضوع، أي إلى سائل ومسؤول. "إن صورتَي العلاقة، 'الذات' و'الموضوع'، تتزامنان، تلتحمان في واحد، والأنا هي هذا الالتحام [...] الأنا تفيض بجزء منها، تعزله عن جسدها الرئيسي في صورة موضوع سيتم سؤاله. والجزء المتبقي الذي يصير ما يفعل، يصير سائل، لا يزال أنا كاملة، بالرغم من فعل انفصال الذات. تماماً مثل الخلية التي تقسم نفسها إلى نصفين، ومع ذلك، فكل نصف هو خلية كاملة الأوصاف بحدِّ ذاتها، وليست "نصفاً". إن هذا السائل المعافى يمكنه أن يقسم نفسه ثانية عبر السؤال: "من هي هذه الأنا التي تسأل: مم أنا خائف؟" إن هذا السعار الانقسامي للذات يمكن أن يستمر إلى الما لا نهاية، حيث السائل في المرة الأولى يصير مسؤولاً عنه في المرة الثانية، وهكذا دواليك."[30]

يحاور البرغوثي، على لسان بطل رواية الضفة الثالثة لنهر الأردن، نفسه التي يرى ويشعر بغربتها وبانعدام قيمتها، ليس في أعين الناس، بل في عينيه هو. نجده مدركاً لغربته النفسية وتخبطاته الروحية والفكرية، ولكنه عاجز عن تغيير ذلك وليس لديه المقدرة عليه ولا الدليل إليه، وهذا يُشعره بالضعف والحزن نتيجة للألم النفسي والشعور بالغربة. إن عملية استيعاب الفرد لازدواجية العالم تبدأ منذ الصغر، منذ أن يرى الطفل انعكاس صورته لأول مرة في المرآة، فيبدأ السؤال: من أنا بالفعل؟ وكيف أرى نفسي؟ وتبدأ معه رحلة الروح في السعي وراء الكمال.

بعد أن فقدت الذات تعريفها لنفسها والقدرة على تحقيقها للتواصل البيننذاتي مع السياق الذي تعيش فيه، يقرر البطل تحطيم نفسه كلياً، والتفكير بالانتحار فيقول لنفسه: "بل لأن في قلبك مرآة دائرية تهمس لك دائماً أنك ميت وفارغ مثل الطيور في الأدغال، حاولت التضحية بنفسك لأنك لا شيء وتحاول أن تكون شيئاً ما، بطلاً يرقص

الفقراء على صوت طبوله الذهبية، لم تولد في الزمن المناسب ولم تعش بالشكل المناسب. أنت جبان وبلا قيمة ولا شخصية، انتحر الآن دون خوف ولا تفكير، فالموت الفارغ نهاية لحياة فارغة، والرعب منه دليل على أنك واصلت خيانة الحياة حتى آخر لحظة فيها [...] أغمضت عيني بيأس وبكيت... كنت أكره الضعف، والبكاء من الضعف ولكن... على أيِّ حال بكيت."[31]

يتنقل البرغوثي في هذه الرواية جغرافياً بين أماكن عدَّة عاش فيها، هي: فلسطين وبيروت وهنغاريا، ولكن في الرواية كان البطل هو الذي ينتقل، ويحدِّث حبيبته دانا عن أيام الحرب في القدس وفي بيروت، موضحاً مشاعر الحنين والألم وفقدان الرغبة في العيش، باحثاً عن معنى لها وعن هوية لا يمكن تحديدها في ظل الظروف التي مرَّ بها، والتي لا يزال يعيشها كحالة من تخلخل في النفس تُفقده الهوية ومعاني الحياة شيئاً فشيئاً.

الفراغ الذي رأى التفاصيل

في خطوة تالية، وفي نص **الفراغ الذي رأى التفاصيل**،[32] يعبِّر البرغوثي عن موقعية ذاته في العالم من منظور مجازي، حيث يرى نفسه على حدود الأشياء "فاختار المشي على الحافة حيث تمتزج الظلال بالخطى،"[33] فيشعر أنه برزخ، ضفة ثالثة تمزج ضفتَين، وهو عبارة عن مزيج بين هاتين الضفَّتين، أو أيِّ شيئين، يقول: "وبنى برزخاً، حاجزاً غامضاً، صار حرباء يرى بالعين اليمنى أفعى وباليسرى نهراً."[34] اختار أن يكون وحيداً ومنعزلاً، محاولاً القبض على طريق ثابتة، ليحرر نفسه من أفكار الماضي ويصنع هوية جديدة كما يرغب هو نفسه، دون أيّ تأثيرات خارجية: "قال لها لا بدَّ من تحرير داخلنا وخارجنا معاً، أنا أبحث عن حرية داخلية وأنتِ عن حرية خارجية- داخلية"، وشرد ذهنه: "لماذا لم أقم حتى الآن بفعل واحد من أجل تحرير العالم كله، داخلي وخارجي، بفعل أضع فيه كل قلبي."[35] يختار البرغوثي الحافة، أي الحدّ بين الأشياء، وهذا يوضح أنه في مرحلة عدم التأكد، ضائع لا يعرف أيَّ اتجاه يسلك، يحاول أن يبني حرية داخلية فقط، لا خارجية للمجتمع بأسره.

إن وعي الذات لذاتها هو أمر معقد وصعب، فمنذ مرحلة الوعي يبدأ تشكل هوية ذاتية غير متكاملة، ومنها تستمر عمليات تحديد أو عدم تحديد الهوية. البرغوثي واعٍ إلى أن الخوف هو أساس ما يعيشه وما يشعر به، وهو معترف بأن الخوف يجعله غير قادر على ترتيب فوضاه الفكرية وعلى تحديد وجهته للوصول إلى حل: "الخوف هو المفتاح، خوف من ألا أفهم، خوف من الفشل، من الوحدة ومن الأمكنة العالية، خوف من الموت، وتحمُّل المسؤولية، من أن أتألم من تجربة ما، من السخرية بي، من أن أهان، من أن أكون مبتذلاً، أو غبياً، أو ثرثاراً، أو عادياً، خوف من تضييع الحياة بالعيش ومن اكتشاف ذلك بعد فوات الأوان."[36]

وبالتالي، فإن **نص الفراغ الذي رأى التفاصيل** كان استمراراً لرحلة ذهاب البرغوثي. يتحدَّث فيه عن المكان بشكل عام، لا يستخدم موتيفات: الجبل، النهر، والبحر إلا قليلاً. إنه يشبِّه نفسه ببرزخ لا يعرف أيَّ اتجاه يسلك. تبدو نفسيته ضائعة متزعزعة. يحاول البحث عن مكان ثابت لنفسه لكي يبني هوية مستقرة وواضحة، ولكنه لا يعود إلى الجبل ولا إلى البحر. يشعر بأنه نهر يجري بين ضفتين جرياناً دائماً غير مستقر، ويختار "المشي على الحافة حيث تمتزج الظلال بالخطى."[37]

الضوء الأزرق

في سيرة **الضوء الأزرق**[38] لا تدرك روح البرغوثي أيَّة وجهة تختار، يرى الأشياء مزدوجةً (أصبح يرى شخصيته شخصيَّتين)، روحه ضعيفة لا تقوى على اختيار الأمور. في هذه الحالة النفسية والروحية التي يختبرها، يحاول البرغوثي دائماً الجلوس مع نفسه، ويسعى إلى سبر غورها بغية تحديد نقاط ضعفها وسبب تلك النقاط. كذلك، يحاول قبول ما هو عليه من ضعف وحزن وخوف وغيرها من المشاعر السلبية، متوصلاً إلى معرفتين: معرفة تجعله يفهم حالته وتشكل، بالتالي، أول خطوة للتقدُّم، ومعرفة تُبقيه عالقاً فيما هو فيه، وتزيد الحِمل عليه أكثر، فيقول: "ما زال قدره يتذبذب... كان يبدو وكأنه يعرف الكثير، ولكن هناك فرق بين معرفتين: معرفة تحمله ومعرفة يحملها، الأولى قارب يركبه للعبور إلى الشاطئ الآخر، تُقويه، تساعده، تنقله. والثانية تجذيف في التراب، قارب يحمله عندما يعبر في صحاريه، عبء، لا حاجة إليه."[39]

في هذه المرحلة من حياته، أي خلال وجوده في أمريكا لإكمال دراسته الأكاديمية ضمن برنامج الماجستير في الأدب المقارن في جامعة واشنطن، يلتقي البرغوثي عدة أشخاص في المقاهي، تدور بينهم أحاديث وتحصل مواقف، يتأثر منهم فكرياً وشعورياً ويؤثر هو فيهم. لكن الأثر الأكبر تركه عليه شخص يدعى بَرِي، فما أن وقعت عين البرغوثي على بَرِي حتى تملكه شعور غريب تجاهه. ومنذ تلك اللحظة، تبدأ رحلة المعرفة الفكرية والروحية عن طريق الحوارات والمواقف التي كانت تحدث بين حسين وبَرِي. يصف البرغوثي بَرِي قائلاً: "رأيته صاعداً نحونا: لفتت نظري طاقته، تشبه الأرض والفقع. لكن هيئته كمحارب قديم من أصل رعوي [...] أصابعه بيضاء ناعمة، فيها أنوثة، وترك الدخان على رؤوسها صبغة تشبه الحناء، ولكن الشعر على يده غزير وأسود وفيه رجولة، وكأنه تناقض في التعبير. أعني، لا يمكن جمعه إلى بعضه ليكون شيئاً واحداً [...] صوته فيه عمق البحر وحرية الهدير، وجنون آخر."[40]

البرغوثي مدرك لما يشعر ويفكر به، ولكنه لا يعرف ممَّ ومنذ متى. في محادثاته مع بَرِي الصوفي، يبدأ البرغوثي مرحلة إدراك لذاته ولنفسيته بصورة جديدة، يبدأ بفهم مكامن روحه تدريجياً، ويحاول التعامل معها: فقد كان يرى نفسه طفل جبال لا يتغير، صلباً وثابتاً، في حين رأى بَرِي بحراً متقلباً ومتغيراً غامضاً. لقد أدرك من خلال لقاءاته مع بَرِي إنه لا يعي نفسيته تماماً، وذلك نابع عن الخوف والاغتراب وعدم الثبات. يقول: "وأدركت أن خوفي من أن تنفصم شخصيتي وتقوم شخصيتي الثانية باقتراف جريمة لا تعرف عنها شخصيتي الأولى، ليس إلا حدساً بالبحر الذي في بطني، والموج الذي ذابت فيه كالملح كل غرائز التدمير التي خلقها الله أو عبيده في وأنا طفل، 'شخصيتي الأخرى' هي هذا البحر نفسه. كنت أخشى الفصام لأنني كنت منفصماً أصلاً! كان البحر يطاردني لأنه أعمق وأصدق وأوسع شكل عرفه غضبي، ونواياه تدمير العالم كله."[41]

تتضح هنا فكرة الجبل والبحر، فالبرغوثي في أول لقاء له مع بَرِي، شعر بأن الأخير كالبحر، بينما الآن وبعد محاورات مع بَرِي، ازداد شعور البرغوثي بأنه يشبه الجبل من حيث الثبات. والثبات هنا بمفهومه السلبي، أي عدم القدرة على التغير والتشكل من جديد كما يفعل البحر العميق والرائع، أو كما أمواج البحر التي تشكل هيئات لا حصر لها.

كان البرغوثي يرى بَرِي هكذا، كالبحر، فيه عمق وروع وتغير. هذا ما كان يتعطَّش له البرغوثي—القدرة على التشكُّل من جديد بعمق جديد. والانفصام هنا هو بين شخصيته التي هو عليها، والمبنية من تجارب وذكريات متراكمة أدَّت به إلى الشعور بالحزن والضعف والخوف وعدم الثبات والتهرب، وهي الشخصية الثابتة كما الجبل (على حدِّ وصف البرغوثي)، وبين الشخصية الثانية المبنية على مشاعر مكبوتة ومؤلمة يرغب البرغوثي في تفجيرها والتخلُّص منها.

شعور البرغوثي بأن البحر في بطنه، ما هو إلا رغباته وطموحاته منذ الطفولة، تلك التي تراكمت داخله ولم يجرؤ على تحقيقها أو على البوح بها، فتحولت إلى رغبة في التدمير، في تدمير ذاته المملوءة حدَّ الاختناق برغبات وأفكار ومشاعر وتجارب، كبَحَها ولم يستطع، لأسباب مختلفة، تحقيقها أو البوح بها.. كما تحولت إلى رغبة في تفجير البحر الذي في داخله وإغراق كل شيء، وفي التخلص من كل العوائق، فتحول خوفه من البحر إلى تماهٍ معه، وأصبح البحر جزءاً من البرغوثي كما الجبل.

وبعد ثلاثين عاماً من المنفى الطوعي، يعود البرغوثي إلى ريف رام الله الذي كتب فيه سيرته **سأكون بين اللوز**.[42] يُعيده مرض السرطان إلى مسقط رأسه: "والسرطان رسام جعل اللامرئي في عيني مرئياً، حين يلتقي الفن والحب والموت في الروح [...]، وكأن كوناً ثانياً لم ألحظه من قبل، ونسيته، يحضر فجأة إلى الوعي."[43] يعود البرغوثي إلى جنائن اللوز في حديقة بيتهم، هذه الأشجار التي زرعها والده لوالدته بعد زواجهما سنة 1948. أخذت تفاصيل صغيرة تسترعي انتباه البرغوثي، وهي تفاصيل لم يكن يلتفت إليها من قبل، أو كان قد نسي وجودها في طبيعة البيت والمنطقة. يحاول الرجوع إلى بدايته، إلى الجبال والطبيعة التي ولد وترعرع فيها، يستذكر الأشخاص والأحداث التي كانت جزءاً من طفولته، والتي يحاول من خلالها صياغة بدايته وتخيل إكمالها لتكون النهاية كما يجب.

سأكون بين اللوز

كان منهمكاً في مرضه بالسرطان، ويشعر إنه في برزخ بين الحياة والموت. في المشفى طابق للولادات الجديدة، وطابق آخر فيه موت مستمر، وهو بينهما: بين الحياة والموت، وكأنه زائد لا حاجة له، يواجه مرضه بموضوعية وعقلانية إلى حدٍّ ما، محاولاً أن تكون نهايته في الحياة حاملة معنى وقيمة. ويبدأ رحلة مليئة بالحوارات الداخلية والتأمُّلات في تفاصيل الطبيعة الريفية، تفاصيل تعيده لأيام طفولته، فينظر لها بعين مختلفة ويراها بشكل جديد.

بعد أن يعود البرغوثي إلى فلسطين مستعيداً ذكريات الطفولة مع الأماكن والأشخاص، يعود إلى ذاته، يصف ما يشعر به: "فوضى في قلبي وخارجه. لكن لا توجد فوضى، بل نظام آخر للأشياء [...] منذ زمن وأنا أحلم أن أعود طفلاً، بعد نضوجي، كي أستيقظ [...]، ألم تحِنْ قيامتي بعد؟ سأنضج عما قريب، مع اللوز والرمان والورد، وأقول لهذه الجنائن: قد نضجت!"[44] كان البرغوثي يشعر كأن ذاته جزء من الطبيعة والبيئة التي ولد وعاش فيها في فلسطين، وها هو يعود إليها الآن بعد ثلاثين عاماً بنظرة جديدة وتأمل في التفاصيل والأشياء، في بدايات الأشياء وأصولها.

اقتربت نهاية البرغوثي إذاً، وأصبح يرى الأشياء بعين ثاقبة ويتأمل تفاصيل الحياة قبل رحيله عنها وكأنه يودعها،

أو كأنه يعتذر عن غيابه عنها وهو جزء منها، راغباً في أن يعود إليها وأن تعود ذاته إلى مكإنها الأصلي، إلى الأرض والطبيعة. وهكذا، بدا وأن البرغوثي يشعر باقتراب موعد رحيله، فالموت هو العودة إلى الأصل، إلى تراب الوطن الذي وُلِد وترعرع فيه، لكنه لا يستسلم للمرض، بل يحاول صياغة روحه وذاته لتصبح أكثر جاهزية لاستقبال النهاية، فهو ممن يتقنون البدايات لا النهايات على حدِّ تعبيره.

الخاتمة

غادر البرغوثي فلسطين عبر النهر، نهر الأردن، متوجهاً إلى هنغاريا. هناك كان يشعر بالغربة، لأن طبيعة المكان والناس والطبيعة تختلف عن فلسطين. لم يكن الشعور بالغربة وليد المكان الجديد فقط، بل هو نتيجة لكل ما هو عالق في نفسه من مشاعر وتجارب منذ الطفولة. في هذه المنطقة الجديدة، يحاول البرغوثي إعادة ترتيب أفكاره وفوضاه من خلال التعامل مع الناس وخوض التجارب الجديدة والأماكن التي يراها لأول مرة. يبدأ البرغوثي في نبش الذاكرة بغية إعادة ترتيبها. بالإضافة إلى أن لقاءه بأشخاص جدد ورؤيته طبيعة مختلفة والعيش في بيئة غريبة عنه، جعلته يرى الأمور والتجارب من منظور جديد، وبالتالي رؤيته لنفسه بشكل مختلف والبدء ببناء هوية ذاتية جديدة. فرحلة الذهاب بدأت بالشعور بالغربة والبحث عن أيِّ شيء يساعده على الخروج من حزنه وغربته، وإعادة ترتيب فوضاه الروحية والفكرية.

أما علاقة البرغوثي بالبحر، فقد بدأت من سن صغيرة، وقد كانت مبنية على الخوف والروع. البحر بالنسبة له شيء لا يجرؤ على الاقتراب منه واستكشافه بمعنييه: الحقيقي والمجازي. فبدأ الهلع من المعنى الحقيقي للبحر منذ رؤيته أول مرة في بيروت عندما كان صغيراً، وسحب الموج حسين الطفل الصغير ولولا تدخل الأم لغرق. أما المجازي، فيقصد به استكشاف الذات. فقبل الشروع بهذه الرحلة المحفوفة بالمجازفة والخوف، يجب تعلم السباحة جيداً ومعرفة مخاطر البحر وغدره، والأهم، البقاء على الخط. بكلمات أخرى، قبل الشروع في هذه الرحلة، رحلة الغوص في أعماق الروح، يجب أن نتعلم القدرة على الغوص ومعرفة العودة إلى منطقة الأمان، إلى منطقة عدم فقدان السيطرة الروحية والفكرية والعقلية وإيجاد طريق ثابت وآمن يمكن العودة منه، من وإلى الروح. وإن أردنا أن نربط هذا الوصف مكانياً، فيمكن تشبيهه بالنهر الذي ذُكر سابقاً، وكأن النهر هنا هو عبارة عن الحدود الفاصلة للدخول والخروج من وإلى مكامن الروح والدهاليز الفكرية.

أما بالنسبة للجبل، فقد كان حسين البرغوثي يشبِّه نفسه بالجبل، وتحديداً جبال فلسطين بثباتها وشموخها، أو بشكل أدق كان يشبِّه روحه وقلبه بالجبل. كان البرغوثي في كتاباته الأولى يصف الجبل بصورة تكاد تخلو من الأوصاف الإيجابية، وبالأساس صفة الثبات، حيث إنه شبَّه ثبات روحه بثبات الجبال، ووصفها بالروح الجافة والثابتة غير القادرة على التحول والتجدد والتشكل من جديد. بينما في النصوص اللاحقة وتحديداً عند عودته إلى فلسطين، فقد تغير منظور البرغوثي لهذه الجبال، وأصبح يرى ويشعر ويرغب بأن يكون جزءاً منها بصفته وليدها الذي جاءت به إلى هذه الدنيا والذي سيعود إلى باطنها بعد رحيله القريب

الإحالات

[1] انظر: حسين البرغوثي، "عن المكان المنقرض،" **مشارف**، العدد 4 (1995): 134-143.

[2] Donna M. Orange et al., *Working Intersubjectivity Contextualism in Psychoanalytic Practice* (New York- London: Routledge, 2009), 4.

[3] رنيه ديكارت، **تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى**، ترجمة كمال الحاج، ط4 (بيروت: منشورات عويدات، 1988).

[4] صبري حافظ، "رقش الذات لا كتابتها: تحولات الاستراتيجيات النصية في السيرة الذاتية،" **ألف- مجلة البلاغة العربية المقارنة**، العدد 22 (2002): 14-15.

[5] Pager Henry, "Intrasubjectivity in the Philosophy of Wilson Harris," *Journal of Postcolonial Writing*, Vol. 49, No. 2 (2013): 209-221, 209.

[6] Ibid., 210.

[7] Jacques Lacan, "The Mirror Stage as Formative of the Function of the I as Revealed in Psychoanalytic Experience," in *Écrits: A Selection* (London: Tavistock Publications, 1977).

[8] حافظ، مصدر سبق ذكره، 15.

[9] Orange, et al., op. cit., 4.

[10] George Atwood and Robert Stolorow, *Faces in a Cloud: Intersubjectivity in Personality Theory*, 2nd ed. (Northvale, NJ: Jason Aronson, 1993).

[11] George Atwood and Robert Stolorow, *Structures of Subjectivity: Explorations in Psychoanalytic Phenomenology* (Hillsdale, NJ: The Analytic Press, 1984).

[12] Robert Stolorow, Bernard Brandchaft, and George E. Atwood, *Psychoanalytic Treatment: An Intersubjective Approach* (Hillsdale, NJ: The Analytic Press, 1987).

[13] Robert D. Stolorow and George E. Atwood, *Contexts of Being: The Intersubjective Foundations of Psychological Life* (Hillsdale, NJ: The Analytic Press, 1992).

[14] Orange, et al., op. cit., 85.

[15] Jürgen Habermas, "A Theory of Communicative Competence," in *Recent Sociology no. 2*, ed. H. P. Dreitzel (New York: Macmillan, 1970), 115-148.

[16] Laurel Bollinger, *The Self in Connection: Intersubjectivity in Twentieth Century American Fiction* (Princeton University: Ph.D. Dissertation, 1993), 24-36.

[17] Jessica Benjamin, *The Bonds of Love: Psychoanalysis, Feminism, and the Problem of Domination* (New York: Pantheon Books, 1988), 12.

[18] محمد لطفي جمعة، **مائدة أفلاطون: كلام في الحب** (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2017)، 105-136.

[19] للمزيد حول مقولات فرويد المتعددة في هذا السياق، انظر: سيغموند فرويد، **قلق في الحضارة**، ترجمة جورج طرابيشي (بيروت: دار الطليعة، 1996). وللمزيد حول التحليل النفسي للأدب، انظر: عز الدين إسماعيل، **التفسير النفسي للأدب** (بيروت: دار العودة، 2014). وللمزيد انظر: حسين البرغوثي، **سقوط الجدار السابع: الصراع النفسي في الأدب** (رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، 2006).

[20] للمزيد، انظر: حسين البرغوثي، **الصوت الآخر—مقدمة إلى ظواهرية التحوُّل**، حوله إلى العربية وقدَّمه عبد الرحيم الشيخ، ط 1 (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2021)، 56-53.

[21] المصدر نفسه، 56- 66.

[22] المصدر نفسه، 64.

[23] المصدر نفسه، 71.

[24] المصدر نفسه، 62.

[25] المصدر نفسه، 206.

[26] المصدر نفسه، 103.

[27] المصدر نفسه، 103.

[28] حسين البرغوثي، **الضفة الثالثة لنهر الأردن** (رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، 2006).

[29] المصدر نفسه، 21.

[30] البرغوثي، **الصوت الآخر**، مصدر سبق ذكره، 214-213.

[31] البرغوثي، **الضفة الثالثة لنهر الأردن**، مصدر سبق ذكره، 131.

[32] حسين البرغوثي، **الفراغ الذي رأى التفاصيل** (رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، 2002).

[33] البرغوثي، المصدر نفسه، 18.

[34] المصدر نفسه، 19.

[35] المصدر نفسه، 31.

[36] المصدر نفسه، 23.

[37] المصدر نفسه، 18.

[38] حسين البرغوثي، **الضوء الأزرق** (رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، 2001).

[39] البرغوثي، **الفراغ الذي رأي التفاصيل**، مصدر سبق ذكره، 30.

[40] البرغوثي، **الضوء الأزرق**، مصدر سبق ذكره، 40.

[41] المصدر نفسه، 143.

[42] حسين البرغوثي، **سأكون بين اللوز** (رام الله: بيت الشعر الفلسطيني، 2004).

[43] المصدر نفسه، 98.

[44] المصدر نفسه، 94-94.